دور القدس في الصراع السياسي منذ هدنة الرملة حتى سقوط الدولة الأيوبية (588 - 648 هـ / 1192 - 1250م) دراسة تاريخية

د.شوكت رمضان حجة،جامعة الخليل ،فلسطين

الملخص:

تقدم هذه الدراسة رؤية تاريخية على دور القدس في جميع مراحل الصراع الإسلامي الصليبي بعد وفاة صلاح الدين الأيوبي وحتى سقوط الدولة الأيوبية سنة 648 هـ / 1250م. حيث تظهر الدراسة أن القدس كانت النقطة المركزية في الصراع الإسلامي الصليبي، وكان لها الدور البارز في تحديد موقف الطرفين ومبرراته في الاتصالات والمفاوضات التي تمت بين الطرفين خلال مراحل الصراع الطويلة. وقد اعتمدت الدراسة المنهج التاريخي من خلال جمع ونقد وتحليل الروايات التاريخية التي تناولت المراحل المختلفة للمفاوضات. وقد واستندت الدراسة على المصادر التاريخية بشكل رئيس، دون إهمال بعض الدراسات الحديثة العربية والأجنبية التي تناولت بعض جوانبها.

Abstract:

This study provides a historical perspective about the role of Jerusalem in all of Islamic crusaders conflict from the death of Saladin until the fall of the Ayyubid state in 648 AH / 1250 AD. The study shows that Jerusalem played the central point in the Islamic crusaders conflict, and had main role in prominent the position and justifications of the two parties in the contacts and negotiations which took place between them in all of the conflict stages. The study was based on historical approach by collecting, criticizing and analyzing of historical narratives which dealt different stages of the negotiations. The study also dealt with mainly on historical sources, without neglecting some modern Arab and foreign studies which dealt with some of their aspects.

مقدمة :

مرت الدولة الأيوبية بعد وفاة صلاح الدين الايوبي بمراحل حرجة من الانقسام، فقد احتفظ ابنه الملك الأفضل بدمشق، وابنه العزيز عثمان بمصر، وابنه الملك الظافر حلب، بينما كان أخيه الملك

العادل في الكرك [1]، ودخل هؤلاء في مرحلة من الصراع المرير انتهى بوصول الملك العادل إلى السلطة، وإعادة توحيد الدولة من جديد [2].

وعادت الدولة الأيوبية لتعاني من الانقسام مجددا بعد وفاة الملك العادل، وفشل الحملة الصليبية الخامسة، إذ حل الملك الكامل مكان والده العادل في مصر، بينما أصبحت دمشق من نصيب الابن الثاني للعادل الملك المعظم عيسى، في حين كانت الجزيرة من نصيب الابن الثالث للعادل الأشرف موسى، وحلب لابن عمهما صلاح الدين قلج ارسلان [3].

وكما كانت القدس النقطة المركزية في مفاوضات هدنة الرملة [4] بين السلطان صلاح الدين الأيوبي وريتشارد الأول "ملك انجلترا" أثناء الحملة الصليبية الثالثة (587-588هـ/ 1191–1192م)، فقد ظلت كذلك تلعب دورا محوريا وهاما في الصراع الصليبي الإسلامي حتى تحريرها على يد الخوارزمية سنة (642 هـ / 1244م). وعدم عودة الفرنجة إليها مرة أخرى.

هذا وتناولت الدراسات الحديثة الحروب الصليبية بشكل موسع، وكتبت الكثير من الأبحاث حول الكثير من القضايا المتعلقة بهذه الفترة، ومع كل هذا، فإن هناك كثير من القضايا لاتزال بحاجة إلى مزيد من الدراسة والبحث. لقد علق الدارسون المحدثون كثيرا على موقف الأمراء الأيوبيين من القدس، وانقسموا ما بين مؤيد أو معارض أو مبرر، لما أقدموا عليه من تصرفات وبخاصة فيما يتعلق بما أقدم عليه الملك الكامل، ولا تهدف هذه الدراسة إلى تناول هذه الجوانب وإنما سوف تتناول الدور السياسي للقدس في الصراع الإسلامي الصليبي بعد هدنة الرملة، إذ أن هذه القضية المواضيع الهامة التي لم تحظ بعناية واهتمام الدارسين، حيث لم يتم تناولها إلا بشكل عابر من خلال الحديث عن الحروب الصليبية بشكل عام، وعن الحملتين الصليبيتين الخامسة والسادسة بشكل خاص، دون التركيز على دور القدس السياسي في الأحداث الهامة التي تلت وفاة صلاح الدين الأيوبي، سواء في تحديد العلاقة بين الايوبيين والصليبين، أو حتى في تحديد العلاقة الامراء الايوبيين أنفسهم إبان مراحل الانقسام والصراع على السلطة، الذي كانت تشهده الدولة الأيوبية بعد صلاح الدين الايوبي.

وتأتي أهمية هذه الدراسة في كونها تسلط الضوء، وتعطي رؤية تاريخية على الدور السياسي للقدس في مراحل الصراع الصليبي الاسلامي والاسلامي الاسلامي بعد وفاة صلاح الدين الأيوبي وحتى سقوط الدولة الأيوبية، من خلال نقد وتحليل النصوص التاريخية اعتمادا على المصادر التاريخية بالمقام الاول، دون اغفال لبعض الدراسات الحديثة التي تطرقت إلى جوانب على علاقة بالدراسة، إظهار الدور الذي لعبته المدينة في تحديد مواقف الاطراف المختلفة في الصراع.

القدس في ظل الحملة الصليبية الخامسة:

جاءت الحملة الصليبية الخامسة بتشجيع من المبشرين في فرنسا ومن البابا أنوسنت الثالث الذي أعلن أن المسلمين يستعدون للقضاء على ما تبقى من مملكة بيت المقدس اللاتينية، وأنه لا بد من دعمها بالمال والرجال والعمل على إعادتها إلى ما كانت عليه، وكتب إلى الملك العادل بأن يسلمه بيت المقدس [5]. وحاول البابا الاستفادة من الحماس وجهود بعض المبشرين وبخاصة في فرنسا، فبدأ بالتمهيد للدعوة للقيام بحملة صليبية جديدة [6]، فعمل على عقد مؤتمر عرف باسم مجلس لاتيران الكنسي في 20 رجب/ 11 نوفمبر(612 هـ 1215م)، شارك فيه كبار رجال الدين في الغرب والشرق، وجمع كبير من الأمراء الغير مهتمين بالشؤون الدينية، حيث بلغ عدد المشاركين فيه بالآلاف، ألقى فيهم البابا خطبة بليغة تحدث فيها عما تعانيه القدس تحت حكم المسلمين الذين ينتهكون حرمة كنيسة القيامة ويتهكمون على صليب السيد المسيح، مطالبا الحاضرين بمساعدته في تحريرها، وهو ما قابله المجتمعون بحماس شديد متفقين على توجه حملة صليبية إلى مصر بعد أن وضعوا خطط ذلك [7].

من الواضح أن هدف الحملة الصليبية الخامسة هو رغبة الأوروبيين في محو أثار الهزائم التي لحقت بهم على يد صلاح الدين الأيوبي، وفشل الحملتين الصليبيتين الثالثة والرابعة في استرداد القدس من أيدي المسلمين، وإعادة السيطرة الصليبية عليها مرة أخرى [8]، أي أن القدس كان لها الدور المركزي والمحوري الأول الذي استندت إليه هذه الحملة كما كان الحال في الحملات السابقة.

وفي هذه الحملة التي حشدت فيها البابوية إمكانيات ضخمة، كان التخطيط مشابهاً للحملة الرابعة في أن تتوجه إلى مصر أولا، وذلك لإدراك الصليبيين مدى أهمية مصر في الصراع مع المسلمين في بلاد الشام، وقناعتهم بأنه سوف يكون من الصعب عليهم استرداد القدس دون أن يتمكنوا من السيطرة على مصر التي كانوا يعتبرونها مفتاحا لبلاد الشام، وعن هذا يقول ابن واصل : ولما طالت مدة اجتماع الفرج بمرج عكا اجتمعوا للمشورة في ماذا يبدءون بقصده، فأشار عقلائهم بقصد الديار المصرية أولا، وقالوا : "إن الملك الناصر صلاح الدين إنما استولى على الممالك، وأخرج القدس والساحل من أيدي الفرنج بملكه ديار مصر، وتقويته برجالها، فالمصلحة أن نقصد أولا مصر ونملكها، وحينئذ لا يبقى لنا مانع عن أخذ القدس وغيره من البلاد" [9].

وقد مرت مصر في الحملة الصليبية الخامسة بظروف صعبة بسبب شراسة الحملة [10]، إذ توفي الملك العادل أثنائها [11] وحل مكانه ابنه الكامل، فكان عليه أن يواصل القتال ضد للصليبيين الذين بدئوا في اقتحام دمياط قبل وفاة العادل[12]، وكذلك مواجهة الاضطرابات الداخلية التي أثارها الأعراب القادمين من سيناء والشرقية بدرجة خطيرة [13]. وأخيرا التصدي للمؤامرة التي دبرها الأمير عماد أحمد بن علي المعروف بابن المشطوب لعزله عن الحكم واستبداله بأخيه الأصغر الفائز [14]، وهي الأوضاع التي دفعته إلى الهرب من معسكره وطلب النجدة من أخويه المعظم والأشرف في الشام [15].

أظهر أبناء العادل قدرا كبيرا من التضامن والتعاون أثناء الحملة الصليبية الخامسة، لإدراكهم بأن سقوط مصر بيد الصليبيين، سوف يتبعها سيطرتهم على بلاد الشام، إذ أن اهتمام الصليبيين بالسيطرة على مصر لترسيخ سيطرتهم على بلاد الشام قد ظهرت في مرحلة مبكرة من الحروب الصليبية[16]. وعلى هذا الأساس اجتمع الأخوة الثلاثة : الكامل والمعظم والأشرف لمواصلة القتال، فنجح المعظم في التخلص من ابن المشطوب، وإعادة تنظيم الجيش الإسلامي [17] قبل أن يعود إلى إلى بلاد الشام ليهدم أسوار القدس، لخوفه من استيلاء الصليبيين عليها [18].

إن عودة المعظم من مصر إلى بلاد الشام لهدم أسوار القدس، يلقي الضوء على مدى إدراك الأيوبيين لمركزية دور القدس وأهميته في الصراع، وأنها قد تكون ورقة هامة للمساومة سوف يحاولون من خلالها إغراء الصليبيين بها في أية مفاوضات قد تحدث بين الطرفين، إذ أنه لم يكن بعيدا عنهم أن القدس هي الهدف الأول للصليبيين، ولعل هذا ما يفسر إصرار المعظم على هدم الأسوار رغم تلكؤ البعض وضجر السكان والناس، وما أصابهم من جراء ذلك، وقد وصف أبو شامة هذا الوضع وصفا دقيقا فقال : " ففي أول المحرم وقيل في سابع المحرم أخرب المعظم أبراج القدس وسوره خوفا من استيلاء الفرنج عليه، فاضرب الناس وخرجوا متفرقين في البلاد، وهان عليهم مفارقة ديارهم وضياع أموالهم، وقد كان القدس يومئذ على أتم الأحوال من العمارة، وكثرة السكان. قال أبو المظفر : كان المعظم قد توجه إلى أخيه الكامل في دمياط وبلغه أن طائفة من الفرنج على عزم بيت القدس فاتفق الأمراء على خرابه وقالوا قد خلا الشام من العساكر فلو أخذه الفرنج حكموا على الشام. وكان بالقدس أخوه العزيز عثمان، وعز الدين أيبك أستاذ الدار فكتب إليهما المعظم بخرابه : فتوقفا وقالا : نحن نحفظه. فكتب إليهما المعظم لو أخذوه لقتلوا كل من فيه، وحكموا على دمشق وبلاد الشام، فألجأت الضرورة إلى إخرابه فشرعوا في السور أول يوم من المحرم، ووقع في البلد ضجة مثل يوم القيامة، وخرج النساء المخدرات، والبنات، والشيوخ، والعجائز، والشبان، والصبيان إلى الصخرة والأقصى فقطعوا شعورهم ومزقوا ثيابهم بحيث امتلأت ومحراب الأقصى من الشعور، وخرجوا هاربين وتركوا أموالهم وأثقالهم وما شكوا أن الفرنج تصحبهم وامتلأت بهم الطرقات. فعضهم إلى مصر، وبعضهم إلى الكرك، وبعضهم إلى دمشق، وكانت البنات المخدرات تمزقن ثيابهن وتربطها على أرجلهن من الحفا. ومات خلق كثير من الجوع والعطش. وكانت نوبة لم يكن في الإسلام مثلها. ونهبت الأموال التي كانت لهم في القدس. وبلغ قنطار الزيت عشرة دراهم. ورطل النحاس نصف درهم. وأكثر الشعراء في ذمها ودعوا عليها فقال بعضهم :

في رجب حلل الحميا	وأخرب القدس في المحرم

قال : وأنشدني قاضي الطور مجد الدين محمد بن عبد الله الحنفي لنفسه :

مررت على القدس الشريف مسلما	على ما تبقى من ربوع كأنجم
ففاضت دموع العين مني صبابة	على ما مضى من عصرنا المتقدم
رام علج أن يعفى رسومه	وقد وشمر عن كفي لئيم مذمم
فقلت له شلت يمينك خلها	لمعتبر أو سائل أو مسلم
فلو كان يفدي بالنفوس فديته	بنفسي وهذا الظن في كل مسلم [19].

ويذهب رينسمان إلى القول أن المعظم بادر إلى تدمير استحكامات القدس، لأن الأيوبيين كانوا مدركين بأنهم قد يضطرون للتنازل عنها، وأنه في هذه الحالة لا بد من تسليمها غير محصنة فقال : " وإذ كان لا بد من بذل بيت المقدس للمسيحيين لإنهاء الحرب، فينبغي أن لا يتم تسليمها لهم إلا في حالة خراب، وعجز عن الدفاع" [20].

إن شراسة الحملة الصليبية الخامسة، وإدراك الأيوبيين لأهمية القدس في الصراع، جعلتهم يفاوضون الصليبيين، ويقدمون لهم تنازلات سخية في بلاد الشام، فقد عرضوا عليهم تسليمهم القدس، أو بكلمات أخرى إعادة إحياء مملكة بيت المقدس الصليبية مقابل الجلاء عن مصر، قال ابن الأثير : "هذا يجري والرسل مترددة بينهم في تقرير قاعدة الصلح، وبذل المسلمين لهم تسليم البيت المقدس، وعسقلان، وطبرية،وصيدا، وجبلة، واللاذقية، وجميع ما فتحه صلاح الدين من الفرنج بالساحل وما تقدم ذكره ما عدا الكرك، ليسلموا دمياط، فلم يرضوا، وطلبوا ثلاثمائة ألف دينار عوضا عن تخريب القدس ليعمروه بها، فلم يتم بينهم أمر وقالوا : لا بد من الكرك، فبينما الأمر هذا وهم يمنعون، فاضطر المسلمون إلى قتالهم، وكان الفرنج لاقتدارهم في نفوسهم لم يستصحبوا معهم ما يقوتهم عدة أيام ظنا منهم أن العساكر الإسلامية لا تقوم لهم..." [21]. أما ابن

الوردي فيذكر أن عرض الكامل هذا قد استثنى الكرك والشوبك من المناطق سوف تسلم للصليبيين، ولكنهم اشترطوا الحصول عليهما إضافة إلى ثلاثمائة ألف دينار كتعويض عن قيام المعظم عيسى بهدم أسوار القدس [22]. ويورد المقريزي تفصيلات أكثر حول هذه المفاوضات فيقول : "هذا والرسل تتردد من عند الفرنج في طلب الصلح بشروط : منها أخذ القدس وعسقلان وطبرية، وجبلة واللاذقية، وسائر مافتحه السلطان صلاح الدين من بلاد الساحل، فاجابهم الملوك إلى ذلك، ما خلا الكرك والشوبك، فأبى الفرنج وقالوا : (لا نسلم دمياط حتى تسلموا ذلك كله) فرضي الكامل، فامتنع الفرنج، وقالوا : لا بد أن تعطونا خمسمائة ألف دينا؛ لنعمر بها ما خربتم من أسوار القدس، مع أخذ ما ذكر من البلاد، وأخذ الكرك والشوبك أيضا، فاضطر المسلمون إلى قتالهم ومصابرتهم" [23].

ويوضح رينسمان أكثر بشأن عرض الكامل فيقول : "وفي نهاية أكتوبر 1291 أرسل الكامل فارسين أسيرين، ليعرضا على الفرنج شروطا محددة للصلح، تقضي بأنه إذا جلا الفرنج عن مصر، فسوف يعيد إليهم صليب الصلبوت، وسوف يحصلون على بيت المقدس، وقلب فلسطين والجليل. وسوف لا يحتفظ المسلمون إلا بالقلاع الواقعة وراء نهر الأردن، غير أنهم سوف يؤدون عنها إتاوة" [24].

يبدو من النصوص السابقة أن المفاوضات كانت شاقة وعسيرة، وأن الصليبيين قد أظهروا فيها قدرا كبيرا من التشدد كان يقابله تراجع في الموقف الأيوبي والاستعداد لتقديم مزيدا من التنازلات [25] أملا في الوصول إلى اتفاق ينقذ مصر وبالتالي ينقذ الدولة برمتها. كما يبدوا واضحا أنه كلما أظهر الأيوبيين استعدادا للتنازل كلما تشدد الصليبيون أكثر بحيث يضعون شروطا جديدة، إذ عرض الأيوبيين بداية التنازل عن القدس وعسقلان وطبرية، وجبلة واللاذقية، وسائر مافتحه السلطان صلاح الدين من بلاد الساحل باستثناء الكرك والشوبك لأهميتهما [26]، مقابل تسليم دمياط والإنسحاب من مصر، ولكن الصليبيين أصروا عليهما فاضطر الأيوبيين إلى الموافقة، ولكن الصليبيين

أضافوا شرطا جديدا يتضمن الحصول على ثلاثمائة ألف دينار؛ ليعمروا بها أسوار القدس، التي كان المعظم قد هدمها.

ويبدوا أن الأيوبيين قد اعتقدوا بداية أن التنازل للصليبيين عن القدس و سائر فتوح صلاح الدين باستثناء الكرك والشوبك قد يكون كافيا للوصول إلى اتفاق وذلك نظرا لأهمية القدس للصليبيين، وهو ما دفع رينسمان إلى اعتبار هذا العرض مثيرا للدهشة، ولكن الخلافات في وجهات النظر بين الصليبيين من هذا العرض أدت في النهاية إلى رفضه فيقول: "كان ذلك عرضا مثيرا للدهشة والقلق، إذ سوف يعود للعالم المسيحي دون قتال، المدينة المقدسة، وبيت لحم والناصرة، وصليب الصلبوت. نصح يوحنا بريين بقبول هذا العرض، وسانده في ذلك باروناته والبارونات القادمين من إنجلترا وفرنسا، وألمانيا، ولكن لم يرض بهذا العرض، بيلاجيوس وبطريرك بيت المقدس. إذ اعتقد انه من الخطأ التوصل إلى اتفاق مع الكفار. ووافقتهما الطوائف الدينية العسكرية لأسباب إستراتيجية، إذ جرى تدمير استحكامات بيت المقدس والقلاع الواقعة بالجليل، وكيفما كان الأمر، فمن المستحيل المحافظة على بيت المقدس ما لم تتم السيطرة على إقليم ما وراء الأردن. وعارض الايطاليون أيضا شروط الكامل للصلح، فعلى الرغم من حرص المدن الايطالية البحرية على ألا تقطع علاقاتها مع مصر، فانه قد حدث وقتئذ، أنهم يودون اتخاذ دمياط مركزا لتجارتهم. ولم يهتموا بإضافة الإقليم الداخلي إلى أملاك الفرنج. وبلغ النزاع بين الفريقين المرارة، أن اعتقد جيمس أسقف عكا، أن السلطان لم يبذل عرضه إلا كيما يثير المنازعات بين المسيحيين. فتقرر رفض عرض السلطان تحت إلحاح وإصرار بيلاجيوس" [27].

يظهر أن القدس قد لعبت مرة أخرى الدور المركزي والمحوري في الحملة الصليبية الثانية، وسواء أكان ذلك مقصودا وهو الأمر المستبعد، أو غير مقصود وهو الأرجح، فإن هذا العرض السخي قد سبب انقساما بين الصليبيين ما بين رافض أو موافق [28]، وذلك لتضارب المصالح بين المشاركين في الحملة ، الأمر الذي أدى في النهاية إلى تغليب وجهة نظر الرافضين لهذا العرض [29]. وهنا يمكن القول أن الصليبيين ربما قد اعتقدوا بأنه وبعد حصولهم على القدس يمكن لهم ابتزاز الأيوبيين بأكبر

قدر ممكن من المناطق الأخرى في بلاد الشام مقابل الانسحاب عن مصر، كما أن الأيوبيين قد اعتقدوا أيضا أن عروضهم السخية وبخاصة فيما يتعلق بالقدس سوف تلقى قبولا لدى الجانب الصليبي وأنها سوف تكون كافية للوصول إلى اتفاق، ونظرا لأن طلبات الصليبيين المتتابعة قد فاقت قدرتهم على تنفيذها، لم يكن أمامهم إلا الاستمرار في القتال الذي أدى في النهاية إلى حدوث انقلاب في نتج عنه فشل الحملة، وانسحاب الصليبيين عن مصر [30].

القدس في ظل الحملة الصليبية السادسة :

بعد فشل الحملة الصليبية الخامسة، توجه ملك حنا دي برين ملك مملكة بيت المقدس لمقابلة البابا، كما زار كل من فرنسا واسبانيا للدعوة لحملة صليبية جديدة تنقذ القدس من أيدي المسلمين، كما زار بالترتيب مع البابا الإمبراطور فردريك وزوجه من ابنته بولاند [31]، لربط الإمبراطور بالأراضي المقدسة وجعله يشارك في حملة صليبية جديدة، وهو ما وعد به الإمبراطور مندوبي البابا وأقسم عليه قبل إتمام الزواج [32]، أما بعد الزواج فقد اعتبر الإمبراطور أن عرش مملكة بيت المقدس قد أصبح من حقوق زوجته، وأن حنا دي برين لم يعد وصيا على العرش، وهو ما أدى إلى تفاقم الخلاف الموجود أصلا بين الإمبراطور والبابا [33].

وهكذا فقد جاءت الحملة الصليبية السادسة إلى المنطقة في ظل متغيرات متسارعة في المنطقتين الإسلامية والأوروبية على السواء، فعلى الرغم من إجماع المصادر على أن الإمبراطور كان مثقفا، وعالما بالفلسفة والفلك والهندسة والجبر والطب والتاريخ، وأنه بحكم نشأته في جزيرة صقلية لم يكن يحمل كرها كبيرا للمسلمين [34]، ولعل هذا هو السبب الذي دفع البعض إلى الذهاب إلى أنه كان مسلما في الباطن [35]، هذا في حين أشارت بعض المصادر إلى أنه كان دهريا لا يؤمن بالمسيحية [36]. وقد كان الإمبراطور ولأسباب كثيرة على خلاف كبير مع البابا بسبب الصراع الكبير بين البابوية والإمبراطورية المقدسة في تلك الفترة [37]، حيث كانت البابوية تضغط عليه ضغطاً شديداً للقيام بحملة صليبية جديدة بعد فشل الحملة الخامسة [38]، ولكن الإمبراطور كان متخوفاً من القيام بذلك لئلا يمكن البابا من العدوان على الإمبراطورية المقدسة أثناء غيابه، فأخذ يماطل البابوية،

وبوصوول دعوة الكامل إليه لمحالفته ضد المعظم تهيأت الظروف له للقيام بهذه الحملة [39]، فوصل من جنوب إلى صقلية، ومنها إلى عكا بعد رحلة، تخللها خلاف كبير مع البابا [40].

أما في الجانب الإسلامي، فبعد فشل الحملة الصليبية الخامسة، فرض الملك الكامل سلطانه على الأمراء الأيوبيين، ولكن الدولة لم تلبث أن مرت مرة أخرى بمراحل حرجة من الانقسام، إذ دب الخلاف بين الملك المعظم وأخويه الكامل والأشرف. يقول المقريزي عن حوادث سنة 624 هـ : "وفيها (سنة 626 هـ/ 1229م) تأكدت الوحشة بين الكامل وبين أخويه المعظم والأشرف" [41]. وتختلف المصادر حول سبب هذا الخلاف حيث أرجعه البعض إلى طمع المعظم [42]، الذي حاول الخروج على طاعته، وتطلع لتوسيع أملاكه، فهاجم حماة واستولى على بعض أعمالها، مثل المعرة وسلمية، التابعتان لابن عمه الناصر صلاح الدين قلج أرسلان، ولم ينسحب منهما إلا بأمر الملك الكامل، فترك المنطقة حانقا على أخويه [43]، وهو ما أدى إلى زيادة حدة الخلاف بينهما.

أما الملك الكامل فقد عمل على كسب الأمراء الأيوبيين إلى جانبه، وإبعادهم عن أخيه المعظم، فقام المعظم بدعم الثورة التي قام به شهاب الدين على أخيه الملك الأشرف في خلاط [44]، كما قام بإلقاء القبض على أخيه الأشرف، وإجباره على التعهد بمساعدته في الاستيلاء على حمص وحماه ومهاجمة الملك الكامل في مصر، وقد تعهد الأشرف بذلك [45]، وذلك عندما توجه الأشرف إليه طالباً منه المساعدة أمام الخطر الخوارزمي، عندما شرع الخوارزميين في مهاجمة جورجيا قرب من ممتلكاته في خلاط[46]، ولكنه ما كاد يفلت من يد أخيه المعظم حتى وأكد تحالفه مع الكامل وأخبره بكل ما حدث وتأول في إيمانه التي حلفها أنه كان مكرها عليها [47]. كذلك أقام المعظم حلفاً مع السلطان جلال الدين منكبرتي خوارزم شاه ومظفر الدين بن زين الدين صاحب مع صاحب إربل [48]، حيث وعد خوارزم شاه بأن تكون له الخطبة والسكة في دمشق [49] ، فرد جلال الدين بأن أرسل للمعظم "خلعة لبسها وشق بها دمشق، وقطع الخطبة للكامل" [50].

بهذا، بدا واضحا أن الأمور بين الأخوين الكامل والمعظم قد سارت في طريق مسدود، وأن كل منها، بدأ يبحث عن حلفاء خارجيين ضد أخيه، ويظهر أنه باستعانة المعظم بالخوارزميين ومحالفته

لهم، جعل الملك الكامل يسارع إلى طلب المساعدة والتحالف مع الإمبراطور فردريك الثاني ملك جزيرة صقلية وإمبراطور الإمبراطورية الرومانية المقدسة في غرب أوروبا، وكان رسوله إليه الأمير فخر الدين يوسف يستدعيه إلى القدوم إلى الشام، ليشغل سر أخيه المعظم [51] ، إذ انه تخوف من أن يؤدي تحالف المعظم مع الخوارزميين ليس فقط إلى ضياع مصر، بل إلى زوال الدولة الأيوبية ككل [52]، إذ تؤكد الكثير من الروايات أن الكامل كان يخشى المعظم أصلا وهو ما يعني أن هذا التحالف قد زاد من هذا الخوف ، قال ابن واصل : "وكان الملك الكامل- مع أن عسكره يناهز اثني عشر ألفا وسعة ملكه – لا يجسر على الخروج إلى الشام، ويظن أنه إن خرج (إلى الشام) انحاز أكثر عسكره إلى الملك المعظم، وحيل بينه وبين الديار المصرية (وكان والله الأمر كذلك)؛ فكان لذلك يداريه ويهادنه في الظاهر، وكان الملك المعظم مع ذلك يداري أخاه الملك الكامل ويخطب له على منابر بلاده، ولا يذكر اسمه معه (في غالب أوقاته)، ويضرب السكة باسمه وكذلك يداري أخاه الملك الأشرف" [53].

كما يفهم من رواية أوردها الداودري في كنز الدرر أن خشية الكامل من المعظم، إضافة إلى تحالف المعظم مع الخوارزميين لم يكونا الأسباب الوحيدة التي دفعت الكامل إلى التحالف مع الإمبراطور فردريك، فيضيف إلى ذلك سببا قويا أخر مفاده أن المعظم نفسه كان قد حاول التحالف مع الإمبراطور، فقد جاء على لسان الكامل انه قال لأخيه الأشرف : " ما أحوجني إلى ذلك إلا المعظم، فإنه أعطى الأنبرور من الأردن إلى البحر، والضياع التي من باب القدس إلى يافا، فأحتجت أنا أن أعطيه القدس أيضا" [54]. ولعل ما يجعلنا لا نستبعد مثل هذه الرواية هو توجه مندوب الإمبراطور بعد اجتماعه مع الكامل وإتمام الاتفاق لمقابلة المعظم لكي يطلب منه تسليم البلاد التي فتحها صلاح الدين [55]. يضاف إلى هذا، أن الكامل ربما اعتقد أن الصليبيين سوف لا يمكنهم المحافظ على القدس بعد تخريب أسوارها، وأنه من الممكن له أن يخرجهم منه عندما تستب له الأمور [56].

وفي مقابل مساعدة الإمبراطور للكامل، تعهد الأخير له بأن يعطيه البيت المقدس، وجميع فتوح صلاح الدين بالساحل [57]، فرد الإمبراطور بسفارة تحمل هدية سنية وتحف غريبة، فاستقبل الكامل البعثة استقبالا حسنابنفسه وأكرمه إكراماً زائداً وأعد له هدية فاخرة [58]، ومر مبعوث الإمبراطور على دمشق على المعظم بعد اجتماعه بالكامل، وطلب من المعظم البلاد التي فتحها عمه صلاح الدين، فأغلظ له وقال : " قل لصاحبك ما عندي إلا السيف"[59]، ولكن المعظم سرعان ما توفي وخلفه ابنه الملك الناصر داود [60]، وهو ما يعني انهيار التحالف الذي بينه وبين كل من صاحب إربل وخوارزم شاه، فبدأ الكامل يتطلع إلى أخذ ممتلكاته في بلاد الشام [61].

قام الكامل بعد وفاة المعظم بالتوجه إلى بلاد الشام [62]، فلم يكن من الملك الناصر بن المعظم الذي خاف أن يستولي عمه الكامل على دمشق إلا الاستنجاد بعمه الأشرف، فأرسل الأشرف إلى الكامل يستعطفه، ويؤكد له أنه على تحالفه السابق معه، وأن عليهما العمل معا على منع الفرنج من أخذ بلاد الشام، فكان رد الكامل : "إني ما جئت إلى هذه البلاد إلا بسبب الفرنج، فإنه لم يكن في البلاد من يمنعهم عما يريدونه، وقد عمروا صيدا وبعض قيسارية، ولم يمنعوا، وأنت تعلم أن عمنا السلطان صلاح الدين قد فتح البيت المقدس، فصار لنا بذلك الذكر الجميل على تقضي الأعصار، وممر الأيام، فان أخذه الفرنج حصل لنا من سوء الذكر، وقبح الأحدوثة، ما يناقض ذلك الذكر الجميل الذي ادخره عمنا، وأي وجه يبقى لنا عند الناس، وعند الله – تعالى – ثم أنهم لا يقنعون حينئذ بما أخذوه، ويتعدون إلى غيره، وحيث قد حضرت أنت فأنا أعود إلى مصر، وأحفظ أنت البلاد ولست بالذي يقال عني : أني قاتلت أخي أو حصرته – حاشا لله تعالى –" [63].

يبدو أن الكامل كان متظاهرا في الرغبة في العودة إلى مصر وترك أمر حماية القدس للأشرف، لعلمه بأن الأشرف وأهل الشام لا قدرة لهم على مواجهة حملات صليبية جديدة بدونه، وأنه إذا عاد إلى مصر فان الصليبيين سوف يستولون على القدس وربما على أغلب بلاد الشام، وهو ما دفع الأشرف للحاق به لإقناعه بالبقاء في الشام، ومن ثم قام بالتحالف معه لأخذ دمشق من صاحبها الناصر داود [64]، وهو ما كان الكامل يهدف إلى تحقيقه بعد وفاة المعظم.

وصول الإمبراطور فردريك والمفاوضات مع الكامل :

تزامن وصول الإمبراطور إلى عكا مع وفاة المعظم وانهيار التحالف الذي كان قد عقده مع كل من صاحب إربل و خوارزم شاه، وهو ما يعني بطبيعة الحال زوال الخطر الذي شكله هذا الحلف على الكامل، والذي بسببه قام باستدعاء الإمبراطور لمساعدته ضد أخيه [65].

بعد وصوله إلى عكا، بعث فردريك برسالة إلى الكامل يطالبه فيها تنفيذ ما تم الاتفاق عليه جاء فيها : "الملك يقول لك كان الجيد والمصلحة للمسلمين أن يبذلوا كل شيء ولا أجيء إليهم، والآن فقد كنتم بذلتم لنائبي – في زمن حصار دمياط – الساحل كله ، وإطلاق الحقوق بالسكندرية، وما فعلنا، وقد فعل الله لكم ما فعل من ظفركم، وإعادتها إليكم. وما نائبي إن هو إلا أقل غلماني، فلا أقل من إعطائي ما كنتم بذلتموه له" [66].

وتصف المصادر موقف الكامل من هذه الرسالة، فتشير إلا انه أصيب بالحيرة، فهو من ناحية لا يمكنه رفض هذا الطلب المتفق عليه مسبقا، ولم يكن بإمكانه محاربة الإمبراطور في هذا التوقيت من ناحية أخرى، ولذا فإنه أرسل إليه الأمير فخر الدين بن الشيخ ملاطفا ومسايرا [67]، ليكسب بعض الوقت يقرر بعدها ماذا سوف يفعل. ويذهب البعض إلى القول أن الكامل أحس بأنه ليس من مصلحته أن يصطدم بالصليبيين بالشام في هذه المرحلة التي تتعرض فيها لتهديد الخوارزمية ومن ورائهم المغول، فأراد أن يكسب بعض الوقت بأن يطيل أمد المفاوضات[68]، لا سيما وأن الهدنة التي تمت عقب جلاء الصليبيين عن مصر لا ينتهي أجلها إلا في نهاية 626هـ/1229م.

إن موقف الكامل المتردد، زاد من حراجة موقف فردريك في بلاد الشام، لا سيما أنه كان مترددا أصلا في الخروج على رأس حملة صليبية مما جعل البابا يغضب ويفرض عليه حرمانا من الكنيسة [69]، وربما أن عرض الكامل بتسليمه القدس مقابل مساعدته ضد أخيه المعظم، كان بمثابة طوقا للنجاة بالنسبة له للتخلص من الضغوط الشديدة التي مورست عليه للقيام بهذه الحملة، إذ وصله رسول الكامل وهو يستعد للقيام بالحملة [70]. لذا يبدو من الواضح انه قد عول كثيرا على هذا الوعد ليعيد له هيبته في الغرب [71] رغم انه لم يكتفي به وحده [72]، ولعل ما يدلل على هذا أنه لم

يستقدم معه جيشا كبيرا قادرا الدخول في صراع مع المسلمين[73]، هذا بالإضافة إلى انه لا يمكن له أن يعول كثيرا على صليبي الشام نظرا لما كانوا يعانونه من ضعف وتفكك، والإمبراطور بالنسبة لهم أمير مغضوب عليه من البابا، ومحروم ومطرود من رحمة الكنيسة، وهو ما يفسره رفضهم للتعاون معه بعد وصوله [74].

ولعل ما ضاعف من صعوبة وضع الإمبراطور بعد وصوله إلى الشام، أن البابا كان قد راسل بعض الأمراء الأيوبيين ومنهم الكامل يطلب منهم عدم تسليم القدس للإمبراطور [75]، كما وصلت أخبارا للإمبراطور تشير إلى اعتداء البابا على ممتلكاته في الغرب [76].

كل هذا جعل فردريك في موقف لا يحسد عليه، ومع ذلك نلاحظ أنه ظل متماسكا، ولم يفقد الأمل في تحقيق الغرض الذي جاء من أجله، ولجأ إلى إتباع سياسة ذات خطين متوازيين تمثل الخط الأول في الطريقة الدبلوماسية القائمة على مفاوضة الكامل وحثه على تنفيذ وعده له بتسليمه القدس، إذ بعث رسول إلى الملك الكامل يطالبه فيه بتنفيذ اتفاقه معه كما ذكرنا [77]. كما قام الإمبراطور باستخدام أسلوب الاستعطاف حيث أنه تظاهر بأنه ليس له غرض في القدس ولا غيرها من المناطق، وأن غرضه الوحيد ينحصر في حفظ مركزه ووجاهته في الغرب [78]، فكتب إليه قائلا : "إني عتيقك، وتعلم أني أكبر ملوك الفرنج، وأنت كاتبتني بالمجيء، وقد علم البابا والملوك باهتمامي، فان رجعت خائبا انكسرت حرمتي، وهذه القدس فهي أصل دين النصرانية. وأنتم قد خربتموها، وليس لها طائل، فإن رأيت أن تنعم علي بقصبة البلد ليرتفع رأسي بين الملوك، وأنا ألتزم بحمل دخلها إليك. فلان له الكامل وجاوبه أجوبة غليظة، وباطنها نعم" [79]، وهو في هذا إنما يهون من هذه المسألة ويصورها على أنها مجرد إجراء شكلي لا أكثر.

ويلاحظ أنه في هذا الخصوص أن أسلوب الاستعطاف هذا يحمل في ثناياه تهديا مبطنا باستخدام القوة فقد جاء في إحدى رسائله للكامل : " أنا أخوك واحترام دين المسلمين احترامي لدين المسيح، وأنا وريث مملكة القدس، وقد جئت لأضع يدي عليها، ولا أروم أن أنازعك ملكك، فلنتجنب إراقة الدماء" [80] .

على رغم مما يظهر من أن هذه الرسالة هي رسالة استعطاف للكامل، إلا أنها تحمل في ثناياها نبرة التهديد المبطن، إذ يوضح الإمبراطور فيها، أن تسليمه القدس فقط هو الكفيل بتجنيب الطرفين الحرب وإراقة الدماء. كما يلاحظ أيضا أن الإمبراطور استمر قي استخدام دبلوماسية الاستعطاف في هذه المرحلة، فقد جاء في رسالة أخرى له : " أنا مملوكك وعتيقك، وليس لي عما تأمره خروج، وأنت تعلم أني أكبر ملوك البحر، وقد علم البابا والملوك باهتمامي وطلوعي فإن رجعت خائباً انكسرت حرمتي بينهم، وهذه القدس فهي أهل اعتقادهم وضجرهم، والمسلمون قد أخرجوها فليس لها دخل طائل، فإن رأى السلطان أن ينعم علي بقبضة البلد الزيارة، فيكون صدقة منه، ويرتفع رأسي بين ملوك البحر"[81]. وذكر ابن واصل أن الإمبراطور قال للأمير فخر الدين : " لولا أني أخاف انكسار جاهي عند الفرنج، لما كلفت السلطان شيئا من ذلك، وما لي غرض في القدس ولا غيره، وإنما قصدت حفظ ناموسي عندهم" [82].

أما الخط الثاني الذي سار عليه الإمبراطور في مفاوضته للكامل، فيتمثل في محاولة الضغط على الكامل وتخويفه من خلال محاولة الظهور بمظهر القوة المتزامنة مع الاستعداد العسكري، إذ تشير المصادر إلى قيامه خلال المفاوضات بشروعه في عمارة مدينة صيدا بعد أن استولى عليها على الرغم من أنها كانت مناصفة بين المسلمين والصليبيين، وأن سورها يجب أن يبقى خرابا لا يجوز لأي من الطرفين القيام بتعميره بموجب هدنة سابقة[83].

ويلاحظ هنا أن الإمبراطور قد ظل مصرا خلال هذه المفاوضات على موقفه القاضي بأن ينفذ الكامل له الشروط التي تم الاتفاق عليه. ويوضح ابن واصل هذا الموقف بالقول : " وأبى أن يرجع إلى بلاده إلا بما وقع الشرط عليه من تسليم القدس إليه، وبعض الفتوح الصلاحي" [84]، وهو ما كان الكامل قد امتنع عن تنفيذه[85].

أما الكامل فبالرغم من ترحيبه بالإمبراطور، ورده الرقيق على رسالته، إلا أنه أخبره صراحة بأنه لم يعد في حاجة إلى هذه مناصرته ضد أخيه المعظم، وأنه كان سوف يعطيه القدس ثمناً لهذه

المناصرة لو أنها قد تمت، أما وأن الظروف قد تبدلت بموت المعظم، فإنه لا يستطيع التفريط في بيت القدس [86].

وبالإضافة إلى ذلك، فعلى الرغم من أن الكامل قد أعلن للإمبراطور بأنه سوف لا ينفذ ما كان قد وعد به، وأنه لن يسلم القدس، فإنه على ما يظهر قد بدأ يخشى قيام الصليبيين بعمل عسكري ضده، ولا سيما بعد قيام الإمبراطور بتحصين صيدا، وقد عبر المقريزي عن خوف الكامل هذا بقوله : " وخاف من غائلته، عجزا عن مقاومته، فأرضاه بذلك" [87]، ولعل خوف الكامل هذا ناجم أيضا عن استمرار النزاع بينه وبين ابن أخيه الناصر داود بن المعظم في دمشق، حيث استمر الناصر في مناصبة الكامل العداء، وهو ما أدى بطبيعة الحال إلى زيادة متاعب الكامل ومخاوفه من الدخول في صراع جديد غير مضمون النتائج.

وأخيرا، لا بد من الإشارة إلى تأثير الأمير فخر الدين يوسف بن الشيخ، الذي سبق وأن حمل عرض الكامل إلى الإمبراطور بمساعدته ضد أخيه المعظم، وكان يحمل رسائله إلى الإمبراطور خلال المفاوضات، إذ كان رأي الأمير يتمثل في دعوة الكامل إلى الالتزام بما وعد، وأن عليه تسليم القدس إلى الإمبراطور [88]، وهو ما قام به الكامل في نهاية الأمر.

اتفاقية تسليم القدس (صلح يافا) ربيع الأول 627 هـ / 1229 م :

عرفت اتفاقية تسليم القدس من قبل الكامل للإمبراطور فردريك باسم صلح يافا، وقد تم كتابة بنود هذا الصلح باللغتين العربية والفرنسية، وحلف الحضور على الالتزام بما ورد فيه من بنود، حيث حلف على ذلك كل من الكامل والإمبراطور والكامل، [89]، وقد نص الصلح على البنود التالية :

1- مدة الاتفاق عشرة سنوات ميلادية.

2- تبقى المناطق التي أخذها الصليبيون قبل الصلح بأيديهم وتشمل قلاع الشقيف، وتبنين وجبلة وكوكب وبيروت، وصيدا، ويافا، والمجدل، واللد، والرملة وعسقلان، وبيت جبريل.

3- تبقى بيت المقدس خربة، ولا يجدد سورها، وتكون قراها للمسلمين، وتكون تابعة للوالي بالبيرة الواقعة شمال القدس.

4- يبقى المسجد الأقصى والصخرة بيد المسلمين ويمارسون فيها الشعائر الدينية من أذان وصلاة، ويتولاها قوام مسلم، ولا يدخلها الصليبيون إلا للزيارة .

5- يأخذ الصليبيون بيت المقدس، والناصرة، وبيت لحم.

6- يعطي للصليبيين بعض القرى الواقعة على الطريق من عكا إلى القدس، حتى لا يتعرض الصليبيون القادمون من عكا لزيارة القدس للعدوان، وتبقى سائر المدن والقرى بين المسلمين.

7- إطلاق سراح الصليبيين ومن ضمنهم الأطفال الذين أسروا في حملة الأطفال السابقة.

8- تعهد الإمبراطور المشاركة في الدفاع عن الملك الكامل ضد أي عدو حتى ولو كان من الإفرنج، كذلك تعهد أيضاً عدم تقديم أية مساعدة لحكام انطاكيا وطرابلس، وحكام المناطق الإفرنجية الأخرى في بلاد الشام.

القدس بعد صلح يافا :

بعد توقيع الطرفين مباشرة، تم تسليم القدس للصليبيين في ربيع الأول سنة 627 هـ / 1229م، فاستأذن الإمبراطور من الكامل زيارة القدس، فأجابه الكامل إلى ما طلب، وتسهب المصادر التاريخية في الحديث عن تفاصيل الزيارة [90].

هذا وقد كانت ردة الفعل على ما قام به الكامل عنيفا في مختلف مناطق العالم الإسلامي، ففي مدينة القدس عم الحزن والبكاء وأنكر الناس هذا العمل [91]، ولم يقف الأمر عند هذا الحد، بل إن الأئمة والمؤذنون العاملون في القدس، توجهوا إلى مكان إقامة الكامل، وأذنوا على بابه في غير وقت الأذان كتعبير عن هذا السخط، وهو ما دفع الكامل إلى أن يأمر بأن : " يؤخذ ما معهم من الستور والقناديل الفضة وجميع الآلات، ويتوجهوا إلى حال سبيلهم" [92].

أما في المناطق الأخرى، فقد أسهب المصادر في الحديث عن السخط العام على ما قام به الكامل، فيصف المقريزي مدى الأسى الذي حل بالمسلمين لضياع بيت المقدس فيقول " فاشتد البكاء وعظم الصراخ والعويل.....وعظم على أهل الإسلام هذا البلاء. واشتد الإنكار على الملك الكامل، وكثرت الشناعات عليه في سائر الأقطار....." [93]. أما ابن الأثير فيقول : " فاستعظم

المسلمون ذلك وأكبروه ووجدوا له من الوهن والتألم ما لم يمكن وصفه" [94]. ويضيف ابن واصل بالقول : " وقع في أهل القدس الضجيج والبكاء، وعظم ذلك على المسلمين وأنكروا على الملك الكامل هذا الفعل واستشنعوه منه" [95]. وقال الذهبي : "فيها (سنة 126 هـ) أخلى الكامل البيت المقدس وسلمه إلى الأنبرور ملك الفرنج. فإنا لله وإنا إليه راجعون. فكم بين من طهره من الشرك ومن أظهر الشرك عليه. ثم اتبع فعله بحصار دمشق وأذية الرعية" [96].

ويبدو أن الناصر داود قد استغل ذلك فشجع حملة التشهير الكبيرة التي تعرض لها الكامل في دمشق، فقد ذكر سبط بن الجوزي أنه : "لما وصلت الأخبار بتسليم القدس للفرنج قامت القيامة في جميع بلاد الإسلام، واشتدت العظائم بحيث أنه أقيمت المآتم" (97)، فيذكر سبط بن الجوزي أن الناصر قد طلب منه أن يجلس للوعظ في جامع دمشق، وأن يتحدث عما جرى في بيت المقدس، وأنه لم يكن بإمكانه مخلفته من ناحية، وكذلك فان الحمية للدين الإسلامي تتطلب الموافقة من ناحية أخرى، فألقى خطبة مطولة في حضور الناصر وجمع غفير من أهل دمشق جاء فيها : "انقطع عن بيت المقدس وفود الزائرين، يا وحشة المجاورين! كم كانت لهم في تلك الأماكن من ركعة؟! كم جرت لهم على تلك المساكن من دمعة؟! تالله لو صارت عيونهم عونا لما وفت، ولو تقطعت قلوبهم أسفا لما اشتفت، أحسن الله عزاء المؤمنين، يا خجلة ملوك المسلمين لمثل هذه الحادثة تسكب العبرات لمثلها، تتقطع القلوب من الزفرات، لمثلها تعظم الحسرات..." [98].

كما تظهر ردة العنيفة على ما قام به الكامل من خلال الشعر الذي قيل في رثاء القدس، ومما جاء في ذلك :

عزيز علينا أن نرى القدس يخرب	وشمس مبانيه تزول وتغرب
وقلت له : منا الدموع لأنه	على مثله تجرى الدموع وتسكب [99].

وأورد سبط بن الجوزي، أبياتا من قصيدة في حديثه في جامع دمشق فقال :

على قبة المعراج والصخرة التي	تفاخر ما في الأرض من صخرات
مدارس آيات خلت من تلاوة	ومنزل وحي مقفر العرصات [100].

وروى البعض أن فقيرا بات في القدس، فسمع قائلا يقول في الليل هذه الأبيات :

إن يكن بالشام قل نصيري	وتهدمت ثم دام هلوكي
فلقد أصبح الغداة خراب	سمة العار في حياة الملوك [101].

هذا ويظهر أن الكامل قد أدرك قوة حملة التشنيع التي مورست ضده، فعمل على تعليل الظروف التي دفعته إلى القيام بما أقدم عليه، إذ أنه برر ذلك بالقول : "إن الفرنج لا يمكنهم الامتناع بالقدس مع خراب أسواره، وأنه إذا قضى غرضه واستتبت الأمور له. كان متمكنا من تطهيره من الفرنج وإخراجهم منه" [102].كما بعث برسل إلى الأقطار الإسلامية، وإلى الخليفة العباسي يبرر ما أقدم عليه، فكان تبريره لذلك بالقول : " إنا لم نسمح للفرنج إلا بكنائس وأدر خراب، والمسجد على حاله، وشعار الإسلام قائم، ووالى المسلمين متحكم في الأعمال والضياع " [103].

يلاحظ أن ردة الفعل على ما قام به الكامل من تنازل كانت عنيفة، ولم تقتصر على الحكام فقط، بل اتسعت لتشمل كذلك الفقهاء والشعراء وعامة الناس، الذين اعتبروا أن ما قام به الكامل بمثابة الكارثة والمصيبة الكبرى التي تقام لأجلها المآتم، وهو ما يوضح مدى أهمية القدس والدور والتأثير الذي مثلته القدس في الصراع الإسلامي الصليبي وما كان لها من تأثير على مجرى الأحداث السياسية الجارية. كما يلاحظ أن الكامل قد حاول جهده لتبرير ما أقدم عليه من تنازل قد لا يبدو مبررا من خلال العمل على التهوين من هذه المسألة وتصويرها على أنها مجرد إجراء شكلي لا أكثر، وهو ذات الأسلوب الذي استخدمه معه الإمبراطور خلال المفاوضات التي توقيع صلح يافا، علما بأن هذا التبرير الذي يلقى قبولا بين المسلمين كما ذكرنا.

القدس حتى سقوط الدولة الأيوبية :

عادت الخلافات الأيوبية بعد وفاة الكامل لتظهر من جديد، فتحالف الملك الصالح إسماعيل صاحب دمشق والملك المنصور صاحب حمص ضد الملك الصالح نجم الدين أيوب في مصر [104]،

كما أنهما ضما الصليبيين إلى هذا الحلف وشرعوا جميعا في مهاجمة مصر ولكن هذه الحملة انتهت إلى الفشل بسب انضمام جيوش الصالح إسماعيل والمنصور إلى الصالح أيوب عند غزة، وهو ما أدى إلى هزيمتهما ومن معهما من الصليبيين هزيمة كبيرة [105].

أما فيما يتعلق بالقدس في هذه الفترة فمن المعروف أنها قبل وفاة الكامل كانت تخضع للصليبيين بموجب صلح يافا، ولكن الناصر داود سارع إلى السيطرة عليها بعد وفاة الكامل عندما علم بقدوم حملة صليبية جديدة نزلت عكا، وهو ما اعتبره نقضا لشروط صلح يافا [106]. أما بعد هزيمة غزة، فقد جاءت حملة فرنسية صغيرة إلى عكا لم تستطع عمل شيء سوى مطالبة الصالح إسماعيل باحترام اتفاقه مع الصليبيين قبل هزيمة غزة، وذلك بالاعتراف بملكية الصليبيين لبعض الحصون في فلسطين وكذلك القدس، وهو ما تم الاتفاق عليه [107].

عاد النزاع مرة أخرى بين أفراد البيت الأيوبي بعد فشل محاولات الصلح بينهم [108]، فتحالف الصلح إسماعيل والناصر داود ضد الصالح أيوب، ولخوفهم من عدم قدرتهم على مواجهته، تحالفوا مع الصليبيين على أن يسلموا لهم القدس وأن يعملوا على إعادة مملكة بيت المقدس اللاتينية الصليبيين على ما كانت عليه قبل صلاح الدين، كذلك وعدوهم بأنهم بأن يعطوهم جزءا من مصر في حال نجحوا في أخذها، يقول ابن واصل عن ذلك : "ولما اجتمعت كلمة هؤلاء على حرب الملك الصالح نجم الدين أيوب ومباينته، وعلموا مكاتبته إلى الخوارزمية، وأنهم لا بد وأن يطرقوا البلاد ويجتمعوا مع عساكر الديار المصرية على حربهم، وعلوا أنهم لا طاقة لهم به، صالحوا الفرنج واتفقوا معهم على تسليم البيت المقدس إليهم، على أن يكون الحرم بما فيه من المزارات لهم وعلى تسليم طبرية وعسقلان وكوكب إليهم، وأن يأذنوا لهم في عمارتها. فتسلم الفرنج ذلك كله وعمروا قلعتي طبرية وعسقلان وحصنوهما. وأخذ بيت الأسبتار كوكب وعزموا على عمارتها، ودخل الفرنج القدس، وتسلموا الصخرة المقدسة والأقصى وما في الحرم الشريف من المزارات. وضمنوا للفرنج - على ما اشتهر – أنهم إذا ملكوا الديار المصرية أن يكون لهم فيها نصيب. وجمع الفرنج الفارس والراجل وحشدوا" [109].

أما الصالح أيوب، فيبدو انه قد حاول هو الأخر التحالف مع الصليبيين، وعرض عليهم مقابل التحالف معه نفس العرض الذي عرضه الصالح إسماعيل والناصر داود، أي بمعنى أن تكون سيطرتهم على القدس كاملة [110] ، ولكن الصليبيين بعد تردد اختاروا الانضمام إلى الأيوبيين في الشام [111] ، واتفقوا معهم على مهاجمة مصر [112]. يقول ابن واصل عن ذلك : "وسافرت في أواخر هذه السنة إلى الديار المصرية. ودخلت البيت المقدس، ورأيت الرهبان والقسوس على الصخرة المقدسة. وعليها قناني الخمر برسم القربان. ودخلت الجامع الأقصى، وفيه جرس معلق. وأبطل بالحرم الشريف الأذان والإقامة، وأعلن فيه باالكفر، وقدم الملك الناصر داود القدس في ذلك اليوم الذي زرت فيه القدس، ونزل غربي القدس، فلم أجتمع به خيفة أن يصدني عن الوصول إلى الديار المصرية. ووصلت إلى غزة فوجدت بها بعض عسكر الملك الصالح إسماعيل نازلين بها" [113].

بعد هذا الاتفاق، قرر الطرفان مهاجمة مصر بعد أن تسلم الصليبيين بعض القلاع في بلاد الشام، يقول أبن واصل : "وبعث الملك الصالح (إسماعيل) عسكرا إلى غزة، وعزموا على قصد الديار المصرية. ومضى الملك المنصور بنفسه إلى عكا، واجتمع بالفرنج وقرر معهم أن يمضوا معه لحرب الملك الصالح فأجابوه إلى ذلك" [114].

يبدو هذا الاتفاق كان يعني أن تكون سيطرة الصليبيين على القدس سيطرة تامة بما فيها الأماكن المقدسة وهي المناطق التي تم استثنائها من هذه السيطرة في صلح يافا كم ذكرنا، بدليل رؤية قول ابن واصل أنه رأى الرهبان والقسوس على الصخرة المقدسة وعليها قناني الخمر، والجرس معلق في المسجد الأقصى وقد منع فيه الأذان والصلاة.

أمام هذا الوضع، لم يكن أمام الصالح أيوب إلا الاستنجاد بالخوارزمية الفارين من وجه المغول، فراسلهم بهذا الخصوص، فما كان منهم إلا الترحيب بذلك فاندفعوا اتجاه بلاد الشام واحتلوا طبرية ونابلس والقدس سنة 642 هـ / 1244م [115]، وهزموا قوى الأيوبيين والصليبيين قرب غزة[116]، ولم يعد الصليبيون للسيطرة على القدس مرة أخرى.

يلاحظ أن القدس قد لعبت مرة أخرى نقطة مركزية في الصراع الإسلامي الصليبي، وكانت كذلك نقطة ورقة هامة في الصراعات الأيوبية الداخلية، يحاول من خلالها كل طرف دفع الصليبيين للتحالف معه من خلال ما يقدمه لهم من تنازلات بخصوصها، وعن هذا الصراع الأخير بين أمراء البيت الأيوبي يقول سعيد عاشور بأنه في سنة 641 هـ / 1234 – 1244م أن الأمراء الأيوبيين (الصالح أيوب والصالح إسماعيل والناصر داود) قد أقروا : " مبدأ استيلاء الصليبيين على الحرم الشريف ووضع أيديهم على المقدسات الإسلامية في بيت المقدس" (117).

خاتمة :

أظهرت الدراسة أن القدس كانت دائما كما كانت من قبل النقطة المركزية في الإسلامي الصليبي بعد وفاة صلاح الدين الأيوبي حتى بعد أخر تحرير لها على يد الخوارزميين سنة 642 هـ / 1244م، إذ اتخذ الجميع منها ورقة هامة سواء لتحقيق السلم أو الحرب على السواء، وكان الموقف منها له أثره الكبير في المفاوضات وكذلك في تشكيل التحالفات الكثيرة التي شهدتها تلك الفترة. ففي الحملة الصليبية الخامسة شكلت القدس نقطة هامة في الصراع الإسلامي الصليبي عندما عرض الأيوبيين على الصليبيين التنازل لهم عنها وعن جميع فتوح صلاح الدين مقابل انسحابهم عن مصر.

كما كانت نقطة مركزية في الصراع بين الأمراء الأيوبيين أنفسهم وبخاصة بين الكامل والمعظم، حيث عمل كلاهما على استخدامها كورقة هامة في تحالفاته ضد الآخر، وأن الملك الكامل قد تنازل فعلا للصليبيين عنها. كما كانت نقطة هامة ومركزية في الصراع بين الصلح أيوب من جهة و الصالح إسماعيل والناصر داود من جهة أخرى، بحيث تنازل الأخيران عنها وسلماها للصليبيين وهو الأمر الذي كان الصالح أيوب على استعداد لعمله في سبيل التحالف مع الصليبيين.

كما يتضح أن كل الأطراف كانت دائما تحاول التخفيف من حدة ردة الفعل إزاء ما تقوم به تجاه المدينة كما فعل كل من الإمبراطور فردريك والكامل حيث صور الأول للكامل أن تسلميه للقدس ليس أكثر من إجراء شكلي، وهو الأمر ذاته الذي ينطبق على الكامل الذي صور تنازله عنها للإمبراطور بأنه إجراء شكلي ليس أكثر.

واتضح كذلك أن القدس لم تكن نقطة مركزية عند الحكام والملوك فقط، بل كانت عند عامة الناس الذين كان دائما ما ينتابهم السخط مما يحل بها حتى عندما يكون الغرض حمايتها كما حدث مع المعظم عيسى، ومع الكامل الذي كان السخط عليه كبيرا وعاما لم يقبل فيه كل التبريرات التي حاول تقديمها. وكذلك حدث الأمر ذاته عندما تنازل عنها كل من الصالح إسماعيل والناصر داود.

المصادر والمراجع :

أولا المصادر :

- ابن الأثير، عز الدين أبو الحسن علي بن محمد بن عبد الكريم الجزرى الشيباني، الكامل في التاريخ، راجعه وصححه محمد يوسف الدقاق، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الرابعة، 2022م/1424هـ..
- ابن تغري بردي، جمال الدين أبي المحاسن يوسف. النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، تحقيق محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، 1413 هـ، 1992م.
- ابن خلكان، أبو العباس شمس الدين أحمد بن أبي بكر : وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق إحسان عباس، ج 7، بيروت : دار الثقافة، 1989.
- الدوادارى، أبي بكر بن عبد الله بن أيبك. كنز الدرر وجامع الغرر، الجزء السابع الدرر المطلوب في أخبار بني أيوب، تحقيق سعيد عبد الفتاح عاشور، القاهرة، 1391 هـ، 1972م.
- أبي شامة، الروضتين، شهاب الدين عبد الرحمن بن إسماعيل بن إبراهيم بن عثمان المقدسي الدمشقي الشافعي، تراجم رجال القرنين السادس والسابع المعروف بالذيل على الروضتين، وضع حواشيه وعلق عليه إبراهيم شمس الدين، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، 1422 هـ، 2002م.
- ابن شداد، القاضي بهاء الدين يوسف بن رافع : سيرة السلطان الناصر صلاح الدين الأيوبي "النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية"، تحقيق أحمد أبيش، دمشق : الأوائل للنشر والتوزيع، الطبعة الثانية، 2000م.
- الداودي، أبو بكر عبد الله بن أيبك، كنز الدرر وجامع الغرر، تحقيق سعيد عبد الفتاح عاشور، القاهرة، 1391 هـ، 1972م. الذهبي، الحافظ شمس الدين محمد بن أحمد، العبر في خبر من غبر، تحقيق أبو هاجر محمد السعيد بن بسيوني زغلول، دار الكتب العلمية، بيروت (ب،ت).
- العيني، بدر الدين محمود، عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان (العصر الأيوبي)، الجزء الرابع، تحقيق ودراسة محمود رزق محمود، مطبعة دار الكتب والوثائق المصرية، القاهرة، 1431 هـ - 2010م.
- أبي الفدا، عماد الدين إسماعيل،المختصر في أخبار البشر، المطبعة الحسينية المصرية (ب،ت).
- ابن كثير، الحافظ عماد الدين أبي الفداء إسماعيل بن عمر، البداية والنهاية، تحقيق عبد الله بن عبد المحسن التركي بالتعاون مع مركز البحوث والدراسات العربية والإسلامية بدار هجر، هجر للطباعة، 1419 هـ، 1998م.

- المقريزي، تقي الدين أبي العباس أحمد بن علي بن عبد القادر العبيدي. السلوك لمعرفة دول الملوك، تحقيق محمد عبد القادر عطا، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت، 1418 هـ، 1987م.
- ابن واصل، جمال الدين محمد بن سالم : مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، تحقيق حسنين محمد ربيع، مراجعة وتقديم سعيد عبد الفتاح عاشور، ج 2، القاهرة : مطبوعات إدارة إحياء التراث القديم، وزارة التربية والتعليم، إدارة الثقافة العامة، المطبعة الأميرية.
- ابن الوردي، زين الدين عمر. تاريخ ابن الوردي (ب،ن)، (ب،ت).

ثانيا المراجع :

- رينسمان، ستيفن : تاريخ الحروب الصليبية، المجلد الثالث، القسم الأول، مملكة عكا والحملات الصليبية المتأخرة، نقله إلى العربية الباز العريني، بيروت : دار الثقافة، 1997م/ 1417هـ.
- عاشور، سعيد عبد الفتاح. الأيوبيين والمماليك في مصر والشام، دار النهضة العربية، القاهرة، 1996.
- عاشور، سعيد عبد الفتاح، أوروبا العصور الوسطى : التاريخ السياسي، مكتبة الأنجلو المصرية، الطبعة الخامسة، 1985.
- عاشور، فايد حماد محمد. الجهاد الإسلامي ضد الصليبيين في العصر الأيوبي، دار الاعتصام، القاهرة (ب،ت).
- عمران، محمد سعيد. تاريخ الحروب الصليبية 1095 – 1291، دار المعرفة الجامعية، القاهرة (ب،ت).
- المعاضيدي، خاشع. عبد محمد، سوادي. نوري، عبد القادر. تاريخ الوطن العربي والحروب الصليبية (ب،ن)، (ب،ت)، الطبعة الثانية، 1986.

مقالات علمية :

- شاهين، رياض مصطفى : هدنة الرملة والظروف المحيطة بها، مجلة الجامعة الإسلامية، غزة، المجلد التاسع، العدد الأول، 2001.
- الطل، عثمان. رؤية تاريخية لقضية القدس في المفاوضات بين صلاح الدين الأيوبي والملك الإنجليزي ريتشارد قلب الأسد : 583 – 588 هـ / 1187 – 1191م، المجلة العربية للعلوم الإنسانية، جامعة الكويت، مجلس النشر العلمي، العدد 126، السنة 32، ربيع2014.

مراجع أجنبية :

Ambroise, The crusade of Richard Heart Lion, Translated by Hubert, New York, 1943, p429 – 430, Lane pool, Stanley, A History of Egypt in the middle Ages, London, 1963.

الهوامش:

[1] عن ذلك أنظر : عاشور، سعيد عبد الفتاح. الأيوبيين والمماليك في مصر والشام، دار النهضة العربية، القاهرة، 1996، ص 73 – 75.

[2] عن ذلك أنظر : عاشور، الأيوبيين والمماليك، ص 75 – 81.

[3] أنظر : عاشور، الأيوبيين والمماليك، ص 91 – 100.

[4] عن قضية القدس في مفاوضات صلح الرملة أنظر : الطل، عثمان. رؤية تاريخية لقضية القدس في المفاوضات بين صلاح الدين الأيوبي والملك الإنجليزي ريتشارد قلب الأسد : 583 – 588 هـ / 1187 – 1191م، المجلة العربية للعلوم الإنسانية، جامعة الكويت، مجلس النشر العلمي، العدد 126، السنة 32، ربيع 2014، ص 39 – 76.

وعن صلح الرملة أنظر : ابن شداد، القاضي بهاء الدين يوسف بن رافع : سيرة السلطان الناصر صلاح الدين الأيوبي "النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية"، تحقيق أحمد أبيش، دمشق : الأوائل للنشر والتوزيع، الطبعة الثانية، 2000م، ص399–240 ؛ ابن واصل، جمال الدين محمد بن سالم : مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، تحقيق حسنين محمد ربيع، مراجعة وتقديم سعيد عبد الفتاح عاشور، ج 2، القاهرة : مطبوعات إدارة إحياء التراث القديم، وزارة التربية والتعليم، إدارة الثقافة العامة، المطبعة الأميرية، ص 402–406؛ ابن خلكان، أبو العباس شمس الدين أحمد بن أبي بكر : وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق إحسان عباس، ج 7، بيروت : دار الثقافة، 1989، ص 199–200؛ ابن الأثير، عز الدين أبو الحسن علي بن محمد بن عبد الكريم الجزرى الشيباني، الكامل في التاريخ، راجعه وصححه محمد يوسف الدقاق، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الرابعة، 2022م/1424هـ، ص 218– 219؛ شاهين، رياض مصطفى : هدنة الرملة والظروف المحيطة بها، مجلة الجامعة الإسلامية، غزة، المجلد التاسع، العدد الأول، 2001، ص 365– 416.

Ambroise, The crusade of Richard Heart Lion, Translated by Hubert, New York, 1943, p429 – 430, Lane pool, Stanley, A History of Egypt in the middle Ages, London, 1963, p 279.

[5] أنظر : عمران، محمد سعيد. تاريخ الحروب الصليبية 1095 – 1291، دار المعرفة الجامعية، القاهرة (ب،ت)، ص 227.

[6] أنظر : عمران، تاريخ الحروب الصليبية، ص 226 – 227.

[7] أنظر : عمران، تاريخ الحروب الصليبية، ص 227 – 232.

[8] عمران، تاريخ الحروب الصليبية، ص 225.

[9] ابن واصل، مفرج الكروب، ج 3، ص 258. عن الاهتمام المبكر للصليبيين بمصر أنظر : عاشور، الأيوبيين والمماليك، ص 9 – 14.

[10] أنظر : المقريزي، تقي الدين أبي العباس أحمد بن علي بن عبد القادر العبيدي. السلوك لمعرفة دول الملوك، تحقيق محمد عبد القادر عطا، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت، 1418 هـ، 1987م، الجزء الأول، ص 317 – 322، 324- 325، 327؛ ابن تغري بردي، جمال الدين أبي المحاسن يوسف. النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، تحقيق محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، 1413 هـ، 1992م، الجزء السادس، ص 210 – 216؛ أبي شامة، الروضتين،

شهاب الدين عبد الرحمن بن إسماعيل بن إبراهيم بن عثمان المقدسي الدمشقي الشافعي، تراجم رجال القرنين السادس والسابع المعروف بالذيل على الروضتين، وضع حواشيه وعلق عليه إبراهيم شمس الدين، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، 1422 هـ، 2002م الجزء الخامس، 176 – 177؛ ابن كثير، الحافظ عماد الدين أبي الفداء إسماعيل بن عمر، البداية والنهاية، تحقيق عبد الله بن عبد المحسن التركي بالتعاون مع مركز البحوث والدراسات العربية والإسلامية بدار هجر، هجر للطباعة، 1419 هـ، 1998م، الجزء السابع عشر، ص 70 - 76؛ عاشور، الأيوبيين والمماليك، ص 85 – 97؛ عمران، الحروب الصليبية، ص 252 -265؛ رينسمان، ستيفن : تاريخ الحروب الصليبية، المجلد الثالث، القسم الأول، مملكة عكا والحملات الصليبية المتأخرة، نقله إلى العربية الباز العريني، بيروت : دار الثقافة، 1997م/ 1417هـ، ص 269 – 283.

(11)ابن واصل، مفرج الكروب، ج 3، ص 270؛ المقريزي، السلوك، ج 1، ص 310، 312؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج 17، 71.

(12) ابن واصل، مفرج الكروب، 257 – 260، 270، المقريزي، السلوك، ج 1، 310، 313؛ ج 17، ص 73 – 74.

(13) المقريزي، السلوك، ج 1، 314، 320.

(14) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج 6، ص 202؛ المقريزي، السلوك، ج 1، 314؛ عاشور، الأيوبيين والمماليك، ص 91 – 92.

(15) ابن واصل، مفرج الكروب، ج 4، 23؛ المقريزي، السلوك، ج 1، 314 – 315؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج 6، 196؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج 17، ص 73 - 74؛ الداودري، كنز الدرر، ج 7، ص 206؛عاشور، الأيوبيين والمماليك، ص 91 – 92.

(16) عن ذلك أنظر : عاشور، الأيوبيين والمماليك، ص 9 – 14.

(17) أنظر : ابن واصل، مفرج الكروب، ج 4، 18 – 19؛ ابن تغري بريدي، النجوم الزاهرة، ج 6، ص 202؛ المقريزي، السلوك، ج 1، 314 – 315؛ أبي شامة، الروضتين، ج 5، ص 176؛ أبي الفدا، عماد الدين إسماعيل،المختصر في أخبار البشر، المطبعة الحسينية المصرية (ب،ت)، الجزء الثالث، ص 129؛ عاشور، الحروب الصليبية، ص 92.

(18) ابن الأثير، الكامل، ج 10 ، ص 377 – 378 (حوادث سنة 614 هـ)؛ ابن واصل، مفرج الكروب، ج 4، ص 19، 32؛ المقريزي، السلوك، ج 1، ص 321؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج 17، ص 70، 80 – 81؛ أبي الفدا، المختصر، ج 3، ص 122.

(19) أبي شامة، الروضتين، ج 5، ص 174 – 175(حوادث سنة 616 هـ). أنظر أيضا : المقريزي، السلوك، ج 1، ص 321؛ الداودري، كنز الدرر، ج 7، ص 202.

(20) رينسمان، الحروب الصليبية، ص 280.

(21) ابن الأثير، الكامل، ج 10، ص 379 (حوادث سنة 614 هـ)؛ أنظر : ابن واصل، وفرج الكروب، ج 4، ص 95.

(22) ابن الوردي، زين الدين عمر. تاريخ ابن الوردي (ب،ن)، (ب،ت)، الجزء الثاني، ص 142 (حوادث سنة 618 هـ).

(23) المقريزي، السلوك، ج 1، ص 327؛ أبي الفدا، المختصر، ج 3، ص 129؛ ابن الوردي، ج 2، ص 142 – 143.

(24) رينسمان، الحروب الصليبية، ج3، ص 286.

[25] الداودري، كنز الدرر، ج 7، ص 209 – 210. يقول : " فينما الرسل تتردد في ذلك كله، والملك الكامل يحث في طلب الصلح، ويذعن بالإجابة لكل ما طلبوه". أنظر : عاشور، فايد حماد محمد. الجهاد الإسلامي ضد الصليبيين في العصر الأيوبي، دار الاعتصام، القاهرة (ب،ت)، ص 318.

[26] عن أهمية الكرك والشوبك أنظر :

[27] رينسمان، الحروب الصليبية، ج3، ص 386 – 387.

[28]انقسمت مواقف قادة الحملة الصليبية حول عرض الكامل، فقد اعتبر المندوب البابوي بلاجيوس أن المسلمين لا يجب أن تتم مفاوضهم قبل هزيمتهم لإملاء شروط الهدنة التي يجب أن تتضمن دفع مبلغ مالي كبير. أما تجار المدن الايطالية فقد مالوا هم أيضا إلى الرفض لأن القبول يعني الجلاء عن دمياط وضياع هذا الميناء التجاري الهام من أيديهم. أما ملك مملكة بيت المقدس اللاتينية حنا برين فقد مال إلى القبول لإدراكه أن هذه فرصة لإعادة إحياء المملكة التي لم يكن قد تبقى منها سوى عكا مرة أخرى، وهو نفس موقف الأسقف فرنسيس مؤسس جماعة الرهبان الفرنسسكان. عن ذلك أنظر : عمران، الحروب الصليبية، ص 257؛ عاشور، فايد حماد محمد، الجهاد الإسلامي، ص 312.

[29] أنظر : عمران، الحروب الصليبية، ص 257 – 258.

[30] أنظر : عاشور، الأيوبيين والمماليك، ص 96 – 97.

[31] أنظر : عمران، الحروب الصليبية، ص 277 – 282.

[32] أنظر : عمران، الحروب الصليبية، ص 281؛ رينسمان، الحروب الصليبية، ج 3، 315.

[33] أنظر : عمران، الحروب الصليبية، ص 280.

[34] أنظر : ابن الوردي، ج 2، ص 150. قال عنه : " وكان فرنجيا فاضلا محبا للحكمة والمنطق مائلا إلى المسلمين لان منشأه بجزيرة صقلية وغالبها مسلمون...". وقال عنه العيني : " "وكان الأمبرور ملكا متميزا عالما، يحب الحكمة والمنطق والطب، ولما وصل نسب الكامل به ولم يمكنه دفعه ومحاربته لما تقدم بينهما من الاتفاق، ولأنه كان يؤدي ذلك إلى فوات أغراضه التي كان في ذلك الوقت بصددها فراسله ولاطفه". العيني، بدر الدين محمود، عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان (العصر الأيوبي)، الجزء الرابع، تحقيق ودراسة محمود رزق محمود، مطبعة دار الكتب والوثائق المصرية، القاهرة، 1431 هـ - 2010م، الجزء الرابع، ص 196.

[35] الدوادارى الدرر، ج 7، ص 293 – 294، يقول في هذا الخصوص : "وقالوا عنه أيضا: ولما آتى وقت الظهر، أذن المؤذنون، فقام هو ومن كان معه من جماعته فصلوا. وكان معلمه الذي آتى معه من صقلية، يقرأ عليه المنطق، وقيل أنه كان مسلما في الباطن".

[36] العيني، عقد الجمان، ج 4، ص 208.

[37] أنظر : عاشور، سعيد عبد الفتاح، أوروبا العصور الوسطى : التاريخ السياسي، مكتبة الأنجلو المصرية، الطبعة الخامسة، 1985، ص 384.

[38] أنظر : عاشور، الأيوبيين والمماليك، ص 102.

[39] أنظر : عاشور، الأيوبيين والمماليك؛ عاشور، أوروبا، ص 383 – 386.

[40] أنظر : عاشور، أوروبا، ص 384 – 386؛ عمران، الحروب الصليبية، ص 288.

[41] المقريزي، السلوك، ج 1، ص 343.

(42) عاشور، الأيوبيين والمماليك، ص 99.

(43) المقريزي، السلوك، ج 1، ص 335؛ عاشور، الأيوبيين والمماليك، ص 99.

(44) أبي شامة، الروضتين، ج 5، ص 138 – 143.

(45) ابن واصل، وفرج الكروب، ج 4، ص 205؛ عاشور، الأيوبيين والمماليك، ص 101.

(46) ابن واصل، مفرج الكروب، ج 4، ص 179 – 180؛ عاشور، الأيوبيين والمماليك، ص 100 – 101.

(47) ابن واصل، وفرج الكروب، ج 4، ص 206.

(48) ابن واصل، مفرج الكروب، ج 4، ص 175.

(49) أنظر : المقريزي، السلوك، ج 1، ص 345 (حوادث سنة 624 هـ).

(50) أنظر : المقريزي، السلوك، ج 1، ص 345؛ عاشور، الأيوبيين والمماليك، ص 101- 102.

(52) ابن واصل، مفرج الكروب، ج 4، ص 206.

(53) ابن واصل، مفرج الكروب، ج 4، ص 209. أنظر : المقريزي، السلوك، ج 1، ص 339، 333 – 334، 345، 346.

(54) الدوادارى، أبي بكر بن عبد الله بن أيبك. كنز الدرر وجامع الغرر، الجزء السابع الدرر المطلوب في أخبار بني أيوب، تحقيق سعيد عبد الفتاح عاشور، القاهرة، 1391 هـ، 1972م، ص 292 - 293.

(55) العيني، عقد الجمان، ج 4، ص 153؛ الدوادارى، كنز الدرر، ج 7، ص 284.

(56) ابن واصل، مفرج الكروب، ج 4، ص 243 – 244.

(57) العيني، عقد الجمان، ج 4، ص 152.

(58) عاشور، الأيوبيين والمماليك، ص 102.

(59) العيني ، عقد الجمان، ج 4، 153 ؛ وأنظر : الداودي، أبو بكر عبد الله بن أيبك، كنز الدرر وجامع الغرر، تحقيق سعيد عبد الفتاح عاشور، القاهرة، 1391 هـ، 1972م، ج 7، ص 209؛ عاشور، الأيوبيين والمماليك، ص 102.

(60) أنظر : ابن واصل، مفرج الكروب، ج 4، ص 224.

(61) أنظر : ابن واصل، مفرج الكروب، ج 4، ص 224 – 227، أبي شامة، الروضتين، ج 5، ص 225 – 227، المقريزي، السلوك، ج 1، ص 346، 349.

(62) ابن الأثير، الكامل، ج 10، ص 479 (حوادث سنة 625 هـ)، المقريزي، السلوك، ج 1، 349 – 350.

(63) ابن الأثير، الكامل، ج 10، ص 479 (حوادث سنة 625 هـ)؛ العيني، عقد الجمان، ج 4، ص 197' وأنظر : ابن واصل، وفرج الكروب، ج 4، ص 228.

(64) ابن الأثير، الكامل، ج 10، ص 479 (حوادث سنة 625 هـ)؛ العيني، عقد الجمان، ج 4، ص 197' وأنظر : ابن واصل، وفرج الكروب، ج 4، ص 228.

(65) العيني، عقد الجمان، ج 4، ص 197؛ ابن واصل، وفرج الكروب، ج 4، ص 234.

(66) المقريزي، السلوك، ج 1، ص 351.

[67] أنظر : العيني، عقد الجمان، ج 4، ص 196؛ المقريزي، السلوك، ص 351؛ وأنظر : ابن واصل، مفرج الكروب، ج 4، ص 242.

[68] أنظر : عاشور، الأيوبيين والمماليك، ص 106.

[69] رينسمان، الحروب الصليبية، ج 3، 317 – 318؛ عمران، الحروب الصليبية، ص 288 – 299.

[70] رينسمان، الحروب الصليبية، ج 3، 326 – 327.

[71] أنظر : المعاضيدي، خاشع. عبد محمد، سوادي. نوري، عبد القادر. تاريخ الوطن العربي والحروب الصليبية (ب،ن)، (ب،ت)، الطبعة الثانية، 1986، ص 207.

[72] عمل الإمبراطور قبل إلى بلاد الشام على مراسلة عدد من أمراء البيت الأيوبي لضمان موافقتهم على اتفاقه مع الكامل. عن ذلك أنظر : الأيوبيين والمماليك، ص 104 – 105.

[73] أنظر : عاشور، الأيوبيين والمماليك، ص 103، 107.

[74] أنظر : رينسمان، الحروب الصليبية، ج 3، 324 – 326؛ عمران، الحروب الصليبية، ص 291.

[75] أنظر : عاشور، الأيوبيين والمماليك، ص 105.

[76] أنظر : عمران، الحروب الصليبية، ص 291 – 292؛ عاشور، أوروبا، ص386.

[77]السلوك، ج 1، ص 351.

[78] أنظر : العيني، عقد الجمان، ج 4، ص 205.

[79] الذهبي، الحافظ شمس الدين محمد بن أحمد، العبر في خبر من غبر، تحقيق أبو هاجر محمد السعيد بن بسيوني زغلول، دار الكتب العلمية، بيروت (ب،ت)، الجزء الثالث، ص، 195.

[82] ابن واصل، مفرج الكروب، ج 4، ص 243؛ المقريزي، السلوك، ج 4، ص 354.

[83] العيني، عقد الجمان، ج 4، ص 196؛ ابن الأثير، الكامل، ج 10، ص 478 (حوادث سنة 625 هـ)؛ ابن واصل، مفرج الكروب، ج 4، ص 235.

[84] ابن واصل، مفرج الكروب، ج 4، ص 241.

[85] ابن واصل، مفرج الكروب، ج 4، ص 241.

[86] أنظر : عاشور، الأيوبيين والمماليك، ص 107.

[87] المقريزي، السلوك، ج 1، ص 354، وأنظر ابن واصل، وفرج الكروب، ج 4، ص 234.

[88] أنظر : المقريزي، السلوك، ج 1، ص 353.

[89]المقريزي، السلوك، ج 1، ص 354؛ العيني ، عقد الجمان، ج 4، ص 205.

[90] وصف المقريزي الزيارة بالقول "....وبعث الإمبراطور بعد ذلك يطلب تبنين وأعمالها، فسلمها الكامل له، فبعث يستأذن في دخول القدس، فأجابه الكامل إلى ما طلبه، وسير القاضي شمس الدين قاضي نابلس في خدمته، فسار معه إلى المسجد بالقدس، وطاف معه ما فيه من المزارات، وأعجب الإمبراطور بالمسجد الأقصى وبقبة الصخرة، وصعد درج المنبر، فرأى قسيسا بيده الإنجيل، وقد قصد دخول المسجد الأقصى، فزجره وأنكر مجيئه، وأقسم لئن عاد أحد من الفرنج يدخل هنا بغير إذن ليأخذن ما في عيناه، "فإنما نحن مماليك هذا

السلطان الملك الكامل وعبيده، وقد تصدق علينا وعليكم بهذه الكنائس، على سبيل الإنعام منه، فلا يتعدى أحد منكم طوره، فانصرف القس وهو يرتعد خوفا منه". ثم نزل الملك في دار، وأمر شمس الدين قاضي نابلس

المؤذنين ألا يؤذنوا تلك الليلة، فلم يؤذنوا ألبتة، لما أصبح قال الملك للقاضي : " لم لم يؤذن المؤذنون على المنابر؟" فقال له القاضي : " منعهم الملوك إعظاما للملك واحتراما له". فقال له الإمبراطور : أخطأت فيما فعلت، والله إنه كان أكبر غرضي في المبيت بالقدس أن أسمع أذان المسلمين وتسبيحهم في الليل". المقريزي، السلوك، ج 1، ص 353 – 354؛ ابن واصل، مفرج الكروب، ج 4، 244 – 255؛ الداودري، كنز الدرر، ج 7، ص 293 – 294.

(91) العيني ، عقد الجمان، ج 4، ص 205.

(92) العيني ، عقد الجمان، ج 4، ص 207؛ المقريزي، السلوك، ج 1، ص 353.

(93) المقريزي، السلوك، ج 1، ص354.

(94) ابن الأثير، الكامل، ص 1940 (حوادث سنة 626هـ). (طبعة دار الأفكار الدولية، الأردن، السعودية، عناية أبو صهيب الكرمي (ب،ت).

(95) ابن واصل، مفرج الكروب، ج 4، ص 243.

(96) الذهبي، العبر، ج 3، 197.

(97) العيني، عقد الجمان، ج 4، ص 206.

(98) العيني، عقد الجمان، ج 4، ص 206؛ الداودري، كنز الدرر، ج 7، ص 295.

(99) العيني، عقد الجمان، ج 4، ص 205.

(100) العيني، عقد الجمان، ج 4، ص 206؛ المقريزي، السلوك، ج 1، ص 355 – 356؛ الدوادارى، كنز الدرر، ج 7، ص 295؛ وأنظر : ابن الوردي، تاريخ ابن الوردي، ج 2، ص 150 – 151 (حوادث سنة 625، 626 هـ)؛ وأنظر : ابن واصل، مفرج الكروب، ج4، ص 245 – 246.

(101) العيني، عقد الجمان، ج 4، ص 207.

(102) ابن واصل، مفرج الكروب، ج 4، ص 243 – 244.

(103) المقريزي، السلوك، ج 1، ص 354.

(104) أنظر : المقريزي، السلوك، ج 1، ص ؛ كان الناصر داود بداية متحالف مع الصالح أيوب الذي وعده إعطائه دمشق، ولكنه تحول عنه إلى محالفة الصالح إسماعيل والملك المنصور بعد ذلك. أنظر : المقريزي، السلوك، ج 1، ص 403 - 406؛ عاشور، الأيوبيين والمماليك، ص 118 – 119.

(105)أنظر : المقريزي، السلوك، ج 1، ص 407؛ الداودري، كنز الدرر، ج 7، ص 354؛ عاشور، الأيوبيين والمماليك، ص 120 – 121.

(106) أنظر : المقريزي، السلوك، ج 1، 399 – 400؛ عاشور، الأيوبيين والمماليك، ص 118 – 119؛ عاشور، فايد حماد محمد، الجهاد الإسلامي عاشور، ص 346.

(107) أنظر : عاشور، الأيوبيين والمماليك، ص 120 – 121.

[108] أنظر المقريزي، السلوك، ج 1، ص 419.

[109] ابن واصل، مفرج الكروب، ج 5، ص 332؛ الداودري، كنز الدرر، ج 7، ص 344 – 345؛ المقريزي، السلوك، ج 1، ص 417 – 418.

[110] أنظر : عاشور، الأيوبيين والمماليك، ص 123.

[111] أنظر : عاشور، الأيوبيين والمماليك، ص 122.

[112] أنظر : عاشور، الأيوبيين والمماليك، ص 122 – 123.

[113] ابن واصل، مفرج الكروب، ج 5، ص 333؛ بن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج 6، ص 285.

[114] ابن واصل، مفرج الكروب، ج 5، ص 333؛ الداودري، كنز الدرر، ج 7، ص 374.

[115] ابن واصل، مفرج الكروب، ج 5، ص 363 -337؛ الداودري، كنز الدرر، ج 7، ص 353؛ المقريزي، السلوك، ج 1، ص 419.

[116] المقريزي، السلوك، ج 1، ص 419 – 420.

[117] أنظر : عاشور، الأيوبيين والمماليك، ص 122.